اليوم أحققّ العهد الذي قطعته على نفسي ووعدته لرفاقي

في قلب مدينة ديريك حمكو القابعة في حضن جبل الجودي، وفي حارة عرفت بالحارة القديمة, وفي أسرة متوسّطة الحال، عرف عن صاحبها عمله بالتّجارة (تجارة الأغنام), كما عرف عنه تواضعه وبعده عن المشاكل وحبه للنّاس؛ في هكذا وسط ولد الشّهيد حسين في عام 1965، وترعرع حتّى بلغ سنّ الدّراسة، فدخل المدرسة الابتدائيّة، ثمّ الإعداديّة، ثمّ الثّانويّة الصّناعيّة، حيث تخرّج منها عام 1989م، وانتسب بعد ذلك إلى معهد الآليّات الزّراعيّة في حلب، وتخرّج منه بعد سنتين من الدّراسة، حيث تمّ تعيينه في مديريّة المتاحف والآثار في الحسكة، لكنّه لم يلتحق بالوظيفة، نظرا لانشغاله بالفعّاليات بين الشّعب. خلال هذه الفترة، وفي هذه البيئة، نشأ الشّهيد، فكان مشبعا بروح التّسامح، راغبا عن كلّ تعصّب، محبّا لغيره، متمنّيا الخير لجميع النّاس.

ورغم أنّه من النّاحية الجسديّة كان ضعيف البنية، نحيلا، لكنّه أوتي إرادة صلبة، وعزيمة لا تلين، لا يأتيها إلا الأقوياء الشّجعان.

هذا ما يقرّ به كلّ من عرف الشّهيد وعاش معه, فقد كان دائم الحلّ والتّرحال، لا يهدأ له بال, دائم الحركة، ليس من أجل خدمة نفسه، أو خدمة عائلته، بل من أجل خدمة وطنه والآخرين, وفي معظم الأحوال كان يبقى حتّى وقت متأخّر من اللّيل. وعندما يعود في مثل هذا الوقت، كان يجلس إلى أوراقه وكتبه، يطالع، ويكتب، ويدوّن حتّى الهزيع الأخير من اللّيل. وعندما كان يأوي إلى فراشه، كان يلمّ الفراش، ويضعه جانبا، وينام على الأرض حتّى في عزّ الشّتاء. وعندما كنا نستغرب منه تصرّفه هذا، كان يردّ علينا (أتريدون منّي أن أنام على الفراش الوثير ورفاقي في الجبال يفترشون الأرض ويلتحفون السّماء!! هيهات أن أفعل ذلك!!).

كما عرف عنه حبه للآخرين. فكثيرا ما كان يأتي أمّه طالبا منها ومنا زيارة العائلة الفلانيّة، دون أن يكون بيننا زيارات سابقة، لأنّ صاحبها تعرّض لحادث أو أصابه مكروه. كان يطلب من أمّه أن تطلب من الوالد مبلغا من المال للعائلة المنكوبة، وهذا دليل على إنسانيّته وحبّه للآخرين وإيثاره الإنسان كإنسان، بغضّ النّظر عن جنسه ودينه ومركزه الاجتماعيّ.

كان دائم المراقبة للأمور، يحاول إصلاح الأمور بين العوائل الّتي يحدث بينها سوء تفاهم. كما كان كتوما على أسرار الحزب، إذ لم يبح بأيّ سرّ من أسرار الحزب، علما بأنّه كان على دراية واسعة بأسرار الحزب.

كان الشّهداء عزّ الدين، حسين، هجال، وإبراهيم قد أقسموا على الموت والحياة معا. لذلك كنت تراهم قبل الالتحاق وكأنّهم أخوة أشقاء، بل كان من المستحيل أن تميز بين ابن العائلة والضيف منهم عندما يحلّون في بيت أحدهم، حيث كان الرفيق الضيف يعمل وابن العائلة يجلس مراجعا أوراقه.

ونظرا لتعلقهم بوطنهم تعلقا شديدا، فقد هجروا سنّ المراهقة سريعا. لذلك إذا جلست معهم وجدتهم رجالا تجاوزوا عمرهم الزمني، واكتسبوا خبرة ونضجا، حيث كانوا يعيبون على غيرهم من الشباب تشبههم بالنساء، من حيث وضع الذهب وإطالة الشعر والأظافر وما شابه ذلك. ولا يوجد في قاموسهم اللغوي إلا عبارات: الوطن، الشهيد، الكريلا، العمليات، الحرية... على عكس ألفاظ أترابهم من الشباب.

و قد كانوا على موعد على ذرى جبال كردستان، وتحقق للشهداء عزّ الدين، هجال، وإبراهيم أمنياتهم ووعودهم، حيث التحقوا بصفوف الكريلا، وبقي الشهيد حسين يعيش حالة حسرة لا تطاق، يرددها دائما (رفاقي في الجبال، وأنا هنا...). لذا، كان دائم الطلب من أمانة الحزب الانضمامَ إلى ساحة القتال. لكنّ الحزب لم يوافق على طلبه. وحتى عندما كان في معسكر الشهيد قورقماز، طلب القائد من قائد المجموعة قائلا: (لا ينبغي أن يلتحق حسين بالكريلا، لأنه ضعيف البنية، بل يجب أن يبقى في صفوف الشعب).

تقبّل الرفيق حسين الأمر على مضض، لكنّه لم يملّ من طلب الانضمام، إلى أن تحقّق له ذلك. وكم كانت فرحته كبيرة وعارمة في ذلك اليوم، حيث قال بالحرف الواحد: (إنني أعتبر هذا اليوم يوم عرس لي، و أنا فرِح جدا، وعليكم (قاصداً عائلته) أن تفرحوا لفرحي، و لا أريد لأحد منكم أن يرفّ له جفن).

قال الرفيق حسين يوم وداعه لعائلته ودخوله ساحة الحرب الساخنة:

(شرف كبير لي أن أحمل راية الحزب والقائد. وأقسم أن أصون هذه الراية، وأفديها بدمي...).

وقال أيضا: (يجب ألاّ يعتقد أحد بأننا أناس جاهلون لا يعلمون شيئا ولا يعلمون أنّ الموت بانتظارهم. أجل إننا نعلم علم اليقين أنّ الموت بانتظارنا، ولكننا لا نخاف من الموت، لأننا نعتبر موتنا جسرا إلى الحياة الحرّة الكريمة...).

أرسل الرفيق حسين ليلة دخوله ساحة الوطن رسالة إلى والد أحد الرفاق الذين واعدوا بعضهم على اللقاء في جبال كردستان، وقال له فيها:

(اليوم أحقّق العهد الذي قطعته على نفسي ووعدته لرفاقي الثلاثة. لذا، فأنا أدخل ساحة الحرب مرفوع الرأس، فرحا، لأنّني سألتقي – حيا أو ميتا – رفاقي عزّ الدين، هجال، وإبراهيم في قمم جبال كردستان... لقد أقسمنا أن نعيش معا ونموت معا. وهاأنذا أحقّق هذا الوعد...).

ودخل ساحة الوطن، واستطاع أن يدخل قلوب الناس الذين التقى بهم، فأحبهم وأحبوه. ووردتنا رسائل منهم، ذكروا فيها أنهم أحبوا الرفيق لأنه يمثل قيم الحزب تمثيلا كاملا صحيحا. لكنّ القدر الملعون لم يحقّق له أمنيته بلقاء رفاقه، فقد زاره الرفيق هجال في يوم من الأيام، لكنّ القدر شاء ألاّ يكون الرفيق حسين موجودا، فقد كان في مهمة خارج مركز عمله. وبعد ذلك استشهد الرفيق هجال، علما بأنه لم يكن يفصل بينه وبين الرفيق حسين سوى نهر بسيط. لكنّ القدر لم يشأ لقاءهما بعد فراق طويل، فأرسل الرفيق حسين رسالة هنّأ فيها والد الشهيد هجال باستشهاده. وعندما استشهد الرفيق عزّ الدين، أرسل رسالة أخرى هنّأ فيها والد الشهيد عزّ الدين باستشهاده.

تنقّل الشهيد في ساحة الحرب الساخنة من ماردين إلى جبال كابار إلى جبال جودي، حيث كان مثواه الأخير. وقد أخبرنا من حضر اليوم الأخير من كفاحه:

"إنّه أبلى العدو بلاء حسنا، واستطاع أن ينقذ هو وأربعة من رفاقه الشهداء الذين كانوا معه مجموعة من الرفاق، بعد أن تعرّضت المجموعة لتمشيط كبير لم تشهده المنطقة من قبل. فقد بقي هو و أربعة من رفاقه في المقدّمة يرافقون ويقاتلون من الساعة السادسة صباحا حتّى الساعة الثانية عشرة ظهرا، حيث انسحب العدوّ، بعد أن تكبّد خسائر فادحة. واستطاعت المجموعة النجاة بفضل شجاعة الشهيد ورفاقه.

وبعد نهاية المعركة نزل الرّفاق من الجبل، فوجدوا الرّفيق والأربعة من رفاقه شهداء في ساحة المعركة. فقاموا بدفنهم والوقوف دقيقة صمت على أرواحهم، وقراءة الفاتحة، ثم تابعوا سيرهم، بعد أن أقسموا على متابعة درب الشهداء، والثأر لهم.

هكذا كان الشهيد في حياته، وفي مماته، وكأنّه يحقّق قول الله تعالى: (ويؤثِرُون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة).

صادر في ملف الشهداء العدد الثاني " شيلان" 2006